رمضان شهر التهذيب

الحمد لله ، خير من ربى العباد وأصلح القلوب ، وأفضل من هذب النفوس وقوم العيوب ، نشهد أن لاإله إلا أنت ، العلم كله لك ومنك ، والأمر كله بيدك ، والكون كله تحت سمعك وبصرك : « وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولاتعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين» . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، كشف الغمة وأزال الظلمة وهدى الأمة بفضلك صراطاً مستقيما ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله بدور الظلمات الداجية ، وأصحابه شموس الملة الهادية ، وأتباعه الثابتين ذوى المراتب السامية : « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » .

* * *

يا أتباع محمد عليه السلام ...

إن الله العلى الحكيم ، الخبير العليم ، يصطفى من الأيام مايشاء ، ويختار لعباده من المواسم مايريد ، ويجعل فى بعض الأوقات نفحات من تعرض لها واقتبس منها سعد وفاز ، ومن استخف بها وأعرض عنها خسر وضاع ، وهو سبحانه لايقدم يوماً عن يوم ، ولايفضل حيناً على حين إلا بمقدار مايضعه فى المختار المصطفى من خير وبركة ، ومن مجالات للطاعة والقربى ، فإذا حل موسم من هذه المواسم شد الخيرون عزائمهم وبسطوا هممهم ، فجدوا واجتهدوا ، ودأبوا ونصبوا ، وضاعفوا الجهد والمجهود ، حتى ينالوا فى الزمن القليل أضعاف ماينالونه فى الزمن الطويل ، وبذلك تظهر ميزة الموسم على سواه ، ويبدو فضل أوان النفحة على غير ذلك من الأحيان ...

ومن أعظم النفحات التى نفح الله بها عباده فريضة الصوم التى سجلها الحق تبارك وتعالى فرضاً معلوماً ثابتا باقياً فى القرآن الكريم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها حيث يقول : « ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياما معدودات فمن كان منكم مريضاً أوعلى سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » . وجعل الله سبحانه هذه الفريضة المباركة فى أكرم المناسبات وأفضل الأوقات : «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون » .

ولعل أصدق وصف يحسن إطلاقه على رمضان شهر الصوم أنه «شهر التهذيب» ، لأن الحق سبحانه يمنعنا فيه من الطعام والشراب ، واللغو والسباب ، وشهوة الفرج وبغى الجوارح ، لا لإنه يريد لنا ذات المنع والحرمان ، ولكن لأنه يريد لنا أن نكون أمة تهدى إلى الخير وإلى سواء السبيل ، ومن كانت رسالته فى الحياة تلك ، كان لابد له من نفس صافية وروح عالية وأخلاق ثابتة وعزيمة قوية وزهد فى المتاع الرخيص واللذة العاجلة ؛ ولذلك نهض الصوم على قاعدة التأديب والتهذيب ، تأديب بمنع الطعام ليتحمل الإنسان ألم الجوع ، ويتعود الصبر والانتظار ، وتأديب بمنع الماء ليعتاد المرء الصبر على الظمأ وجفاف الحلق والعروق ، وتأديب بمنع الفرج من شهوته ليستعلى المرء حينا من الزمان على هذه الغريزة القوية المستبدة فلا يكون لها عبدا ، وتأديب بمنع الجوارح من السعى فى الحرام أو التطلع إلى الممنوع ، ليتعلم المرء كيف يترك ولو كان قادراً على أن يدرك ، وليرتفع بإنسانيته فى مدارج السمو والعلو ، فيدنو من مسابح الملائكة الأطهار ، بدل أن ينحط إلى حضيض الشياطين والفجار .

ولذلك رأينا البصراء من علماء هذه الأمة وأئمتها يحرصون على أن يُفهموا الناس أن الصوم ليس مجرد العطش والجوع ، والحديث يقول : « رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » فالواجب على المسلم إذا أراد أن يصوم حقا ، وأن ينتفع بثمرات هذا التأديب الإلهى الحكيم ، أن يترقى صاعدا فى درجات الصائمين حتى يصل أعلاها وأسناها ، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » فيمنع بطنه وفرجه من الشهوات أولا ، وهذه الدرجة أقل درجات التهذيب ، فإذا استقام له ذلك فليرق درجة أخرى ، بأن يكف جوارحه كالسمع والبصر واللسان واليد والرجل عن ارتكاب الآثام وإتيان وجوه الحرام ، فإذا استقام له ذلك فليكف قلبه عن الانغمار فى المقاصد الدنية والهمم الدنيوية ، وليحاول الانقطاع فترة عما ينغمر فيه سواه ، من حرص على الحياة وتعلق بالجاه وإذلال للجباه وتملق للطغاة وسير مع البغاة ، وليتجه بكليته إلى الله حتى يتحقق فيه أمر الله : « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

ولما كان رمضان شهرا للتهذيب ، والتهذيب متعب شديد ، ولما كان فرصة للتأديب والتأديب مر ثقيل ، أراد الرحمن الرحيم أن يحيط رمضان بأطواق من التكريم وأفواف من التعظيم ، تفيض منها ينابيع الفضل ، وتتفجر من حولها أنهار الثواب والأجر ، فهذا رسول الله صلوات الله عليه يقول عن رمضان : « قال الله تعالى كل عمل ابن آدم له إلا الصيام ، فإنه لى وأنا أجزى به ، والصيام جنة ، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إنى امرؤ صائم ، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما ، إذا أفطر فرح ، وإذا لقى ربه فرح بصومه » . وفى رواية : « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله عز وجل : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع شهوته وطعامه من أجلى » ويقول : إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن ، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب ، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب ، وينادى مناد : ياباغى الخير أقبل ، ويا باغى الشر أقصر . ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة » . ويقول : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » . وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله مرنى بأمر ينفعنى الله به . قال : «عليك بالصيام فإنه لامثل له» . ويقول الرسول صلوات الله عليه : « ثلاثة لاترد دعوتهم ، الصائم حين يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين» . ويقول : «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى رب منعته الطعام والشهوة فشفعنى فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه . قال فيشفعان » .

أنعم به من تأديب ، وأكبر به من تهذيب ، ثم أعظم بالأجر والثواب . . . ولو تبصر المرء هنا لرأى الجزاء الكريم على الصوم معجلا ومؤجلا ، أما المعجل فما يستفيده الصائم فى جسمه من صحة ، وفى عزيمته من قوة ، وفى قلبه من طهارة ، وفى جوارحه من صيانة وبراءة ، وبذلك يعيش سعيداً منعما ، فليست السعادة فى الحياة جمع المال ، فكم من أغنياء ولكنهم أشقياء ، وليست السعادة أن تأكل حتى تتخم ، فكم من أناس يموتون من التخمة كما يموت غيرهم من الجوع سواء بسواء ، وليست السعادة أن تعب من الشهوات واللذات بلا حساب ، فكم من مسرف فى هذه الناحية وهو من التعاسة والقلق والاضطراب بمكان ... ليست السعادة شيئاً من هذا ، ولكنها فى راحة البال واعتدال المزاج ، والسير على صراط الاقتصاد فلا إفراط ولا تفريط ؛ ومن اهتدى بهدى الإسلام ، وسار على صراطه المستقيم ، حقق لنفسه ذلك الهناء .

وأما المؤجل فما ينتظر الصائم يوم القيامة من تكريم ومثوبة ، يقول الرسول : « إن فى الجنة بابا يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل معهم أحد غيرهم ، يقال : أين الصائمون ؟ فيدخلون منه ، فإذا دخل آخرهم أغلق فلم يدخل منه أحد » . ولقد قال كثير من المفسرين إن المراد بقوله تبارك وتعالى : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية » هو أيام الصيام التى ترك فيها الصائمون الطعام

والشراب والمتاع إطاعة لربهم واستجابة لدينهم ، فأسلفوا ذلك عند من لايضيع أجر من أحسن عملا ، وعند من يقول : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » فهو يوم القيامة يضع بين أيديهم كل متاع وكل مستطاب ويدعوهم إلى أن يأكلو ويتمتعوا بما أسلفوا فى الأيام الخالية !..

والواقع الذى يدركه العقل السليم والطبع القويم أن الاستجابة لله والاتباع لأوامره والخضوع لدينه ، مما يحقق للمرء سعادته فى حياته ، وسعادته بعد مماته ، والقرآن الكريم يشير إلى هذا حين يقول : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب » . وحين يقول : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

* * *

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

العاقل من انتهز الفرصة قبل أن تصير غصة ، ولا خير فى الفكرة بعد أوانها ، ولعنة الله على الرأى الدبرى الذى يأتى بعد ميقاته ... وهذا ربكم الأعلى يدعوكم فى رمضان إلى رحابه فلا تقاعسوا ، ويقدم إليكم فيه منهاج تربيته وتقويمه فخذوه بقوة وأقبلوا عليه بنشاط ، ويرسم لكم طريق التهذيب والتأديب فلا تفروا منه لبعض شدة تحسونها أو تعب تجدونه ، فكل شىء بثوابه ، وكل مشقة بجزائها ، والله يحصى ولا ينسى ؛ فليكن شهر رمضان فرصة لتأديب البطن حتى تستقيم ، وصيانة الفرج حتى يعف ، وحفظ الجوارح حتى تسلم ، وإحياء القلب حتى يسمو ، وبذلك تستحقون أن تدخلوا ضمن العباد الذين إذا دعوا استجاب الله لهم ، والذين يتحدث عنهم ربهم فيقول عقب آيات الصيام : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان فليستجيبوا ولىؤمنوا بى لعلهم يرشدون » . نضر الله باليمن أيامكم ، وعمر بالصالحات أوقاتكم ، وملأ الليل بذكركم وترتيلكم ، وجعلكم خير الأخلاف لخير الأسلاف ، وأعزبكم دينه ودنياكم ، وأعاد عليكم مواسم الخير وأنتم فى علو من شأنكم وثبات من يقينكم . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف

بيـــان

جاء فى العدد الثالث من مجلة « البعثة » بتاريخ مارس ١٩٥١ فى باب « أخبار الرياضة » ما يلى : —

(وردت إلينا عدة رسائل من الطلبة فى الكويت يشكون فيها حرمانهم من لعبة كرة القدم ، ويذكرون أن اللعبة قد توقفت على منتخب فريق المعارف فقط .. الخ ..) وكنت أسائل نفسى هل الشكوى جاءت من طلاب الثانوى أم من طلاب الابتدائى ؟ وأخيراً رجحت أنها من طلاب الثانوى ، حيث أن طلاب الابتدائى أعطوا حقهم فى جميع ألعاب الكرة ، ومع ذلك لم يكونوا أوفر نصيباً من طلاب الثانوى ، وأعلل قولى بأن الشكوى جاءت من طلاب الثانوى لأنه حُرم عدد منهم ، من لعبة كرة القدم كما أعلم ، وهذا العدد أقل من أن يُعد على أصابع اليد ، وذلك عندما قام بمشاغبات خولت المسئولين حرمانهم هذه اللعبة . وقد أوجد فريق من طلاب الثانوى لكرة القدم ، وفريق آخر تحت التدريب ، إلا أنه أوقف التدريب حين بدأت الدورة التى نظمتها شركة النفط والتى أشرتم إليها فى نفس العدد من المجلة .

وأرجوا أن أكون قد أوضحت نقطة تهم طلاب الثانوى .

(الكويت) ابراهيم قاسم البحوه